المقالة الثانية
في ماهية الشعر وصلاحية الشاعر

الشعر صناعة بها الشاعر يؤلف المقدمات الموهمة، والقياسات المنتجة على وجه يجعل المعنى الصغير كبيرا والكبير صغيرا، ويرد الحسن في زي القبيح، ويجلو القبيح في صورة الحسن. ويثير بالإيهام القوى الغضبية والشهوانية فيحدث بهذا الإيهام للطباع انقباض وانبساط، وتنشأ في العالم الأمور العظام كما روي.

الحكاية الأولى

سئل أحمد بن عبد الله الخجستاني[١]: كنت رجلا مكاريا فكيف نلت أمارة خراسان؟ قال: كنت في خجستان من بادغيس أقرأ يوما ديوان حنظلة البادغيسي فبلغت هذين البيتين[٢]:

إذا كانت العظمة بين فكي الأسد فخاطر وخذها من بين فكيه[١]

فإما أن تنال العظمة والعز والنعمة والجاه، وإما أن تلق، كالرجال، الموت وجها لوجه.

فطمحت نفسي فما استطاعت أن ترضى بالحال التي كنت فيها. فبعت الحمر

---

(١) مهتري كر بكام شير در استشو خطر كن زكام شير بجوى
يا بزرك وعز ونعمت وجاهيا جو مدانت مرك روياروى

obeikandi.com

واشتريت فرسا، ورحلت عن وطني ولحقت بعلي بن الليث أخي يعقوب بن الليث وعمرو بن الليث. وكان بازي دولة الصفاريين يطير في ذروة أوج عليين، وكان على الأخ الأصغر وكان ليعقوب وعمرو عليه إقبال عظيم. ولما ذهب يعقوب من خراسان إلى غزنة أرجعني علي بن الليث من رباط سنكين، ووجهني إلى خراسان لشحنة الإقطاعات وكنت جمعت من ذلك الجيش على الطريق مائة فارس، وكان لي عشرون فارسا من قبل.

وكان من إقطاعات علي بن الليث كروخ هراة[٣]، وخواف نيسابور. ولما بلغت كروخ أظهرت منشور التولية وما حصلتُه فرقتُه على العسكر. فصار فرساني ثلاثمائة. ولما بلغت خواف[٤] وعرضت المنشور لم يقبل رؤساؤها وقالوا: لا نحتاج إلى شحنة بأكثر من عشرة رجال. فاجتمع رأيي على أن أخلع طاعة الصفاريين فأغرت على خواف وسرت منها إلى قرية بُشت[٥] ثم إلى بيهق[٦]. واجتمع علي ألفا فارس فتوجهت تلقاء نيسابور واستوليت عليها. فارتفع شأني ومازال يرتفع حتى استخلصت لنفسي خراسان كلها.

وأصل هذا كله هذان البيتان من الشعر.

ويقول السلامي[٧] في تاريخه: إنه بلغ من أمر أحمد بن عبد الله أنه وهب في ليلة واحدة بنيسابور ثلاثمائة ألف دينار وخمسمائة فرس وألف ثوب. وهو اليوم في التاريخ من الملوك القاهرين. وسبب هذا بيتان من الشعر. وفي مثال هذا كثير بين العرب والعجم. ولكنا اقتصرنا على هذا.

فلا غنى للملك عن الشاعر المجيد يخلّد اسمه. ويبقي ذكره في الدواوين والكتب. لأن الملك إذا نزل به القضاء لم يبق من جيشه وماله وخزائنه شيء ولكن

يبقى اسمه خالدا بشعر الشعراء. يقول الشريف المجلدي الجرجاني:

ما الذي بقي من نعيم آل ساسان وآل سامان؟ إنما بقي مدائح الرودكي وأغاني باربد[١] وقصصه[٢].

وأسامي ملوك العصر وسادات الزمان خلدت بشعر جماعة لهم نظم رائع وشعر شائع. كما بقيت أسامي آل سامان بالأستاذ أبي عبد الله جعفر بن محمد الرودكي، وأبي العباس الربنجني، وأبي المثل البخاري، وأبي إسحاق الجوبياري، وأبي الحسن الأغجي، والطحاوي، والخبازي النيسابوري، وأبي الحسن الكسائي.

وأما أسامي ملوك آل ناصر الدين[٣] فقد بقيت بأمثال العنصري والعسجدي والفرخي والبهرامي والزينتي وبزر جمهر القايني والمنشوري والمنوجهري والمسعودي والقصارامي وأبي حنفية الأسكاف والراشدي وأبي الفرج الروني ومسعود بن سعد بن سلمان، ومحمد الناصر والشاه بروجا، وأحمد بن خلف وعثمان المختاري ومدود السنائي.

وأما أسامي آل خاقان فقد بقيت باللؤلؤي والكلابي والنجيبي الفرغاني وعمعق البخاري والرشيدي السمرقندي ونجار الساغرجي وعلي البانيدي وابن درغوش وعلي السبهري والجوهري والسغدي وابن تيشه وعلي الشطرنجي.

وأما أسامي آل بويه فقد بقيت بالأستاذ المنطقي والكياغضائري وبندار.

---

(١) المغني المشهور الذي ظهر في بلاط كسرى برويز.

(٢) أز آن جندان نعيم اين جهانيكه مانداز آل ساسان وآل سامان
ثناي رودكي ما ندست ومدحتنواي باربد ماندست ودستان

(٣) يعني آل سبكتكين.

obeikandi.com

وأما أسامي آل سلجوق فبقيت بفرخي الجرجاني ولامعي الدهستاني وجعفر الهمداني ودرفيروز الفخري وبرهاني والأمير معزي وأبي المعالي الرازي وعميد الكمالي وشهابي.

وأما أسامي ملوك طبرستان فبقيت بقَمَري الجرجاني ورافعي النيسابوري وكفائي الكنجي وكوسه الفالي وابن كله.

وأسامي ملوك الغور آل شنْسَب خلد الله ملكهم بقيت بأبي القاسم الرفيعي وأبي بكر الجوهري وأقل العباد نظامي العروضي وعلي الصوفي.

ودواوين هذه الجماعة ناطقة بالكمال والجمال والعُدة والعِدّة، والعدل والبذل، والأصل والفضل، والرأي والتدبير والتأييد والتأثير لهؤلاء الملوك الماضين والسادة الغابرين نور الله مضاجعهم ووسع عليهم مواضعهم.

كم عظيم، نعموا بنعم الملوك، وأفاضوا الهبات، وأعطوا هؤلاء الشعراء المفلقين واليوم عفت منهم الآثار، ولم يبق من خدمهم وحشمتهم ديار. وكم بنوا من جواسق مزخرفة وأنشئوا من حدائق مزدهرة، وقد سويت اليوم بها الأرض، وصارت قفارًا يبابا. يقول المصنف:

كم بنى محمود من قصور تطاول القمر علوا

لا ترى منها لبنة واحدة وإنما بقي مديح العنصري[١]

وملك العالم علاء الدنيا والدين[٨] أبو علي الحسين بن الحسين اختيار أمير

---

(١) با كاخا كه محمودش بنا كردكه از رفعت همي بامه مرا كرد
نبيني زآن همه يك خشت بربايمديح عنصري ما نسدت برجاى

المؤمنين أطال الله عمره ونصر رايته توجه إلى غزنة ليثأر لهذين الأميرين الشهيد شهريار والملك حميد، وفر أمامه سلطان بهرامشاه، فحمله الحزن على هذين الشهيدين، وكان الغزنويون استخفوا بهما وسفهوا عليهما، على أن يأمر بنهب غزنة، وأخرب عمارات محمود ومسعود وإبراهيم واشترى مدائحهم بالذهب، وخبأها في الخزائن ولم يجرؤ أحد في هذا المعسكر أو هذه المدينة أن يسمى أحدهم سلطانا على حين كان الملك نفسه يقرأ في الشاهنامة ما قال أبو القاسم الفردوسي:

أول ما ينطق به الطفل الرضيع في مهده «محمود».

تتمثل في جسمه صولة الفيل، وفي روحه علم جبريل، وفي كفه مطر الربيع، وفي قلبه نهر النيل.

مَلك العالم «محمود» ذو العزة القعساء الذي جمع بين الذئب والحمل على مورد الماء[1].

وأرباب العقول يعلمون أنه لم تبق هناك حشمة محمود، ولكن حرمة الفردوسي ونظمه. ولو علم محمود ما ترك هذا الرجل الحر محروما آيسا.

---

(١) جو كودك لب از شير مر بشستزكهواره محمود كويد نخست
بتن زنده بيل وبجان جبرئيلبكف ابر بهمن بدل رود نيل
جهاندار محمود شاه بزركبآبخشور آرد همي ميش وكرك

obeikandl.com

فصل
في صفة الشاعر وشعره

ينبغي أن يكون الشاعر سليم الفطرة، عظيم الفكرة، صحيح الطبع، جيد الروية، رقيق النظر، متنوعا في أنواع العلوم، آخذا بأطراف الرسوم، لأن كل علم يتصل بالشعر كما يتصل الشعر بكل علم.

وينبغي أن يكون الشاعر منطقيا في مجلس المحاورة، طلق الوجه في مجلس المعاشرة. وينبغي أن يكون شعره من الجودة بحيث يكون في صحائف الزمان مسطورا، وعلى ألسنة الأحرار مذكورا. يكتب في السفائن ويقرأ في المدائن. وخير ما في الشعر تخليد الاسم، ولا يبلغ هذا القصد ما لم يبق مسطورا مقروءا.

وإذا لم يبلغ الشعر هذه الدرجة لم يبق أثره، ومات قبل قائله وكيف يخلّد غيره إن لم يخلد نفسه.

ولا يبلغ الشاعر هذه المنزلة إلا أن يحفظ في عنفوان الشباب وريق العمر عشرين ألف بيت من أشعار المتقدمين ويجعل نصب عينه عشرة آلاف كلمة من آثار المتأخرين، ويديم القراءة في دواوين الأئمة ويلتقط منها ليعلم كيف تصرفوا في مضايق القول ودقائق الكلام حتى يترسم في طبعه صور الشعر وطرائقه، ويتجلى له مزايا الشعر ونقائصه فيرتقي قوله، ويعلو طبعه.

فإذا رسخ طبعه في نظم الشعر وانقاد له الكلام عمد إلى علم الشعر وقرأ العروض، وألمّ بتصانيف الأستاذ أبي الحسن السرخسي البهرامي مثل غاية

obeikandl.com

العروضين وكنز القافية، وقرأ نقد المعاني والألفاظ والسراقات والتراجم وأنواع هذه العلوم على أستاذ يحذقها، ليكون جديرا بالأستاذية ويظهر اسمه على صحيفة الزمان مع أسماء الأساتذة الآخرين الذين ذكرنا أسماءهم، حتى يستطيع أن يوفي الممدوح حق نعمه، بتخليد اسمه.

وعلى السلطان أن يربي مثل هذا الشاعر ليتهيأ لخدمته، ويذيع اسمه في مدائحه.

فإن لم يبلغ الشاعر هذه الدرجة لم يجدر بالالتفات إليه، وإضاعة المال لديه لا سيما إذا كان شيخا.

وقد تأملت في هذا الباب فلم أجد في العالم كله أسوأ من الشاعر الهرم، ولا أضيع من المال الذي يهدى إليه.

وأما الشاب المستقيم الطبع فإن كان شعره رديئا فهو مرجو أن يكون حسنا. ويجب في شرعة المروءة تربيته ويُفترض تعهده، ويلزم تفقده.

وليس أحسن في صحبة الملوك من حسن البديهة، فإن بالبديهة ينبسط السلطان، ويزهو مجلسه، ويبلغ الشاعر مقصوده.

ولم ينل أحد ما ناله الرودكي من آل سامان بالبديهة والارتجال.

الحكاية الثانية

حكي أن نصر بن أحمد -الذي كان واسطة عقد آل سامان، وبلغت دولتهم في أيامه أوجها، واستكملت أسباب التمتع، ووسائل العلو، من خزائن مملوءة،

obeikandl.com

وعسكر جرار، وعبيد مطيعين- كان يشتو بدار الملك بخارى، ويصيف في سمرقند أو بمدينة من مدائن خراسان.

ووقع الاختيار على بادغيس من أعمال هراة في ربيع إحدي السنين. وبادغيس أطيب مراعي خراسان والعراق، فيها زهاء ألف قناة فيها الماء والمرعى، في كل واحدة كفاية جيش.

فلما رعت الدواب واكتنزت واشتدت، وصلحت للميدان والحرب، توجه نصر بن أحمد تلقاء هراة ونزل في مرغ سبيد على أبوابها، وضُرب المخيم هناك، وكان الوقت ربيعا وقد هبت الشمال، ونضجت فواكه مالِن وكروخ التي لا يلقى مثلها في كثير من البلاد وإن وجدت لم تبلغ هذه الكثرة.

فاستراح الجيش، وسكن إلى هواء طيب، وماء بارد، وقوت وافر، وفاكهة كثيرة، ورياحين شتى، ونعم الجند وتمتعوا بالربيع والصيف.

ولما جاء الخريف ونضج العنب، وازدهر الشاهسفرم والحماحم والأقحوان أخذوا حقهم من نعيم الشباب، وأعطوا عنفوان الشباب نصيبه. وطال الخريف، ولم يشتد البرد، ونضج العنب شديد الحلاوة، وفي سواد هراة مائة وعشرون لونا من الأعناب كل واحد ألطف من الآخر وألذ. ومنها صنفان لا يوجدان في جهة أخرى من الربع المسكون: البرنيان والكلنجرى. رقيق القشرة، صغير البذرة، كثير الماء كأن ليس فيه أجزاء أرضية، ويبلغ العنقود من الكلنجرى خمسة أمنان والحبة خمسة دراهم، أسود كالقار، وحلو كالسكر يسهل الإكثار من أكله لما فيه من مائية.

وكل أنوع الفواكه الأخرى جيد.

فلما رأى الأمير نصر بن أحمد الخريف وثمراته أعجبه جدا. وأخذ النرجس يزهر؛ وأُلقي الكشمش في مالن واستخرجوا المنقى[١] وعلقت العناقيد، وملئوا بها الخزائن. وانتقل الأمير والجند إلى قريتي غوره ودرواز فرأوا دورا كل واحدة كالجنة العليا، ولكل منها حديقة وبستان أمامها، في مهب الشمال، فأمضوا الشتاء هناك، وأخذ النارنج يُجلب من جهات سجستان والترنج من نواحي مازندران. فقضوا شتاء طيبا جدا.

فلما جاء الربيع أرسلت الخيل إلى بادغيس، وضرب المعسكر في مالِن بين نهرين.

فلما دخل الصيف نضجت الفواكه. فقال الأمير نصر بن أحمد: أين نذهب في الصيف؟ لا مقام أطيب مما هنا، نرحل في الخريف. ولما دخل الخريف قال: نتمتع بخريف هراة ونرحل. وهكذا أخر الرحيل من فصل إلى فصل (أحال فصلا إلى فصل) حتى إني على هذا أربع سنين، إذ كانت دولة السامانيين في عنفوانها، والمملكة عامرة والملك بغير منازع، والجند مطيع، والوقت مساعد، والبخت موافق. ولكن مع هذا كله مل الجند، واشتاقوا إلى ديارهم. ورأوا الملك ساكنا إلى المقام، قد تمكن هوى هراة من رأسه، وعشق هراة في قلبه، يشبهها في حديثه بجنة عدن، بل يفضلها عليها، ويراها أجمل من ربيع الصين، فعلموا أنه يريد أن يمضي الصيف بها.

فتوجه قادة الجند، وأعيان المملكة إلى الأستاذ أبي عبد الله الرودكي. ولم يكن في ندماء السلطان أعظم جاها منه ولا أنفذ قولا، قالوا: نهدي إليك خمسة آلاف دينار إذا وضعت لحنا يحرك السلطان من هذه الأرض. فإن قلوبنا قد أفعمها الشوق إلى أولادنا، وأرواحنا بلغت الحلقوم حنينا إلى بخارى.

(١) المنقى: هو الزبيب الذي أخرج بذره.

فقبل الرودكي، إذ كان قد حبس نبض الأمير، وعرف مزاجه وعلم أنه لا يؤثر فيه بالنثر فعمد إلى الشعر فنظم قصيدة ودخل على الأمير حين الصبوح، وجلس مكانه. فلما فرغ المطربون أخذ هو الرباب وشرع ينشد هذه القصيدة في نغمة العشاق:

ما يزال يهب علينا عرف جيحون[٩] وما يزال يهب علينا عرف الحبيب

ثم انتقل إلى نغمة أهدأ وأنشد:

إن رمل جيحون (آموى) وطريقه الوعر لا يزال تحت أقدامي كالحرير ولا يزال ماؤه، من فرط شوفه لوجه الحبيب، يعلو حتى يبلغ وسط حصاننا. فلقصد بخارى ولتطل حياتها، وليحيا الأمير ولا زال سعيدا.

إن الأمير القمر وبخارى السماء والقمر لا يزال يرنو للسماء

إن الأمير السرو وبخارى البستان والسرو لا يزال متجها نحو البستان[١]

فلما بلغ الرودكي هذا البيت بلغ تأثر الأمير أن نزل عن التخت وأسرع غير منتعل فركب فرس النوبة وتوجّه شطر بخارى حتى حمل وراءه الموزج والغاشية[٢] فرسخين إلى بروته. وهناك لبسهما. ولم يعرج على مكان حتى بخارى.

---

(١) بوي جوي موليان آيد هميبوي يار مهربان آيد همى
ريك آموي ودرشتي راه أوزير بايم برنيان آيد همى
آب جيحون از نشاط روي دوستخنك مارا تاميان آيد همى
مير ماهست وبخاري آسمانماه سوي آسمان آيد همى
مير سرواست وبخاري بوستانسرو سوي بوستان آيد همى

(٢) جلد رقيق مزين يوضع فوق الخف.

obeikandl.com

وضاعف الجند للرودكي خمسة الآلاف دينار.

وسمعت في سمرقند سنة أربع وخمسمائة[١] من الدهقان أبي رجاء أحمد بن عبد الصمد العبادي قال: حدث جدي أبو رجاء أن الرودكي لما رجع إلى سمرقند هذه المرة كانت أمتعته محمولة على أربعمائة جمل.

والحق أن هذا الرجل العظيم كان جديرا بهذا فإن أحدا لم يعارض هذه القصيدة حتى اليوم. ولم الشعراء في طاقتهم الخروج من هذه المضايق.

وممن عرفوا بين العجم بعذوبة القول ولطف الطبع أمير الشعراء المعزي الذي بلغ شعره الغاية في الطلاوة والنضارة، والنهاية في العذوبة والسلاسة. وقد سأله زين الملك أبو سعد هندو بن محمد بن هندو الأصفهاني[١٠] أن يعارض هذه القصيدة. قال: لا أقدر. فألح عليه فنظم أبياتا منها هذا البيت:

يجيء الآن رستم من ما زندران ويجي الآن زين الملك من إصفهان[٢]

وكل عاقل يعرف أي فرق بين هذا الكلام وذاك الكلام. ومن يستطيع أن يقول بهذه العذوبة التي تبدو في قوله مادحا في هذه القصيدة:

يبقى ما أفاء الشعر من الثناء والمديح ولو أصاب الفقر الخزانة[٣]

وفي هذا البيت سبعة من محاسن الصنعة: المطابقة والتضاد والمردّف وبيان المساواة والعذوبة والفصاحة والجزالة[١١].

---

(١) ١١١٠-١١١١م.

(٢) رستم ازماندزران آيد هميزين ملك أز إصفهان آيد همى

(٣) آفرين ومدح سود آيد هميكر بكنج اندر زيان آيد همى

obeikandl.com

وكل أستاذ متبحر في علم الشعر إذا تفكر قليلا علم أني في هذه مصيب والسلام.

الحكاية الثالثة

عشق السلطان يمين الدولة محمود لأياز التركي معروف مشهور. ويقال: إنه لم يكن وسيما جدا ولكن كان أسمر الوجه مليحه رشيقا، ظريفا عاقلا رزينا، عارفا بآداب الخدمة، وكان في هذا نادرة زمانه.

وهذه الأوصاف هي التي تبعث العشق، وتؤكد المودة. وكان السلطان يمين الدولة محمود رجلا دينا تقيا. وقد جاهد نفسه كثيرا في عشق أياز فلم يخرج عن جادة الشرع ومنهج المروءة قيد خطوة.

وكان في مجلس المنادمة ليلة فلما أثر فيه الشراب، وعمِل العشق، نظر إلى أياز فرأى عنبرا يضطرب على وجه قمر، ورأى سنبلا يتثنى على صفحة الشمس. تشاك الدرع وتتابع حلقات السلسلة، في كل حلقة ألف فؤاد وفي كل حلقة مائة ألف روح.

فاختطف العشق زمام الاصطبار من يده. وبرز محتسب «آمنا وصدقنا» وقام أمام السلطان يمين الدولة وقال: حذار يا محمود! لا تخلط العشق بالفسق، ولا تمزج الحق بالباطل، فإن بهذه الزلة تضطرب عليك ولاية العشق وتسقط من جنة العشق كما سقط أبوك وتقع في عناء دنيا الفسوق.

وكان سمع إقباله حديدا فسمع هذا النداء، وخشي ألا يثبت جيش صبره لجند

طرر أياز، فأخرج سكينا وقال لأياز: هيا فاقطع طرّتيك. فحياه أياز وأخذ السكين من يده وقال: من أين أقطع؟ قال: من النصف. فثنى أياز طرته وقدَّر وامتثل. ووضع طرفي طرتيه أمام محمود.

فيقال: إن هذا الامتثال صار سببا آخر للعشق. فطلب محمود ذهبا وجوهرا وأعطى أياز أكثر مما عوّده، وغلبه السكر فنام.

فلما هب عليه نسيم السحر قام فجلس على سرير الملك وتذكر ما فعل فدعا أياز ورأى طرتيه مقطوعتين. فأغار جيش الندم في قلبه واستولى خمار العربدة على رأسه. فكان ينام ويقوم. ولم يجرؤ أحد من المقربين أن يسأله ماذا به، حتى توجه الحاجب علي القريب[١٢]، وهو حاجبه الكبير، إلى العنصري وقال: ادخل إلى السلطان، وأره نفسك واحتل حتى تطيب نفسه. فامتثل العنصري أمر الحاجب الكبير ودخل على السلطان وحيّا.

رفع السلطان رأسه إليه وقال: يا عنصري كنت أفكر فيك الساعة أنت ترى ما وقع فقل في هذا المعنى قولا مناسبا.

فحياه العنصري وقال على البديهة:

لم تعيب قطع طرة الحبيب ولم تقعد وتقوم مهموما؟

ألا فاطر وانشط واشرب فإن زينة السرو في شذبه[١]

---

(١) كي عيب سر زلفت بت از كاستن استجه جاي بغم نشتن وخاست است

جاي طرب ونشاط ومي خواستن استكاراستن سرو زبيراستن است

فسر السلطان يمين الدولة محمود من هذين البيتين كل السرور، وأمر أن يؤتى بالجوهر فملأ فمه بالجوهر ثلاث مرات، ودعا بالمطربين، وشربوا ذلك اليوم إلى الليل على هذين البيتين. وانصرف هذا الداهية مسرورا بهذين البيتين. والسلام.

وينبغي أن يعلم أن البديهة ركن من أعلى أركان الشعر وعلى الشاعر أن يروض طبعه حتى يستطيع أن يثير المعاني بديهة فإن البديهة تخرج الفضة من خزائنها، وملاءمة الحال تطيب نفس السلطان.

هذا كله واجب مراعاةً لنفس المخدوم وطبع الممدوح، وأكثر ما أصاب الشعراء من الصلات العظيمة كان البديهية ومراعاة الحال.

الحكاية الرابعة

كان الفرخي من سجستان. وهو ابن جولوغ علام الأمير خلف بانو[١٣]. وكان جيد الطبع يحسن قرض الشعر، ويضرب على الرباب.

وكان في خدمة أحد دهاقين سجستان. وكان هذا الدهقان يعطيه كل عام من الغلة مائتي مكيال كل واحد خمسة أمنان ومائة درهم نوحي من الفضة. وكان في هذا كفايته. ولكنه تزوج امرأة من موالي خلف أيضًا فكثرت نفقاته، وزادت تبعاته. فأصابته فاقة ولم يكن في سجستان أحد يُقصد إلا الأمراء. فرفع الفرخي قصته إلى الدهقان أن قد زاد الخرج فلو زاد الدهقان كرما غلتي إلى ثلاثمائة مكيال، والفضة إلى مائة وخمسين لعل هذا يفي بحاجاتي.

فوقع الدهقان على ظهر القصة أن هذا القدر لا يُضن به عليك ولا سبيل إلى

الزيادة. فلما قرأ فرخي هذا يئس وأخذ يسأل الصادر والوارد لعله يجد في أطراف العالم وأكنافه ممدوحا يقصد إليه ليصيب خيرا عنده، حتى أخبر أن الأمير أبا المظفر الصاغاني[١٤] في صاغان يحسن إلى الشعراء، ويفيض على هذه الجماعة الصلات والجوائز الفاخرة وأنه لا ند له اليوم من ملوك العصر وأمراء الوقت في هذا الباب.

فنظم قصيدة في مدح الأمير أبي المظفر:

غادرت سيستان مع قافلة الحِلة، لابسا حلة غزلها من القلب ونسيجها من الروح[١]

وهي في الحق قصيدة حسنة أجاد فيها وصف الشعر كل الإجادة وبذ الشعراء في المدح، ثم تزود وتوجه تلقاء صاغان فبلغ الحضرة أوان الربيع وكان الأمير في الموسم[٢].

وسمعت أنه كان عنده ثمانية عشرة ألف حِجرة أصيلة وراء كل واحدة مهرها. وكان يهذب كل سنة ويَسم المِهار.

وكان العميد أسعد وكيل الأمير في الحضرة، يهيئ الأنزال ليحملها إلى الأمير. فذهب فرخي إليه وأنشده قصيدة وعرض عليه قصيدة الأمير. وكان العميد أسعد رجلا فاضلا محبا للشعراء فرأى لفرخي شعرا سلسا بيّن العذوبة، بارع الصنعة. ورأى فرخي سجزيا لا رواء له، يلبس جبة ممزقة، ويضع عمامة كبيرة، وفي رجليه نعلان غليظان جدا. وشعره في السماء السابعة.

---

(١) يا كاروان حلة برفتم ز سيستانباحله تنيده ز دل بافته زجان

(٢) في الأصل داغكاه: مكان الوسم أي وسم الحيوان بالكي. فترجمناها باسم المكان من وسم.

obeikandl.com

فلم يصدق أن هذا الشعر يلائم هذا السجزى. فقال على سبيل الامتحان: الأمير في الموسم وأنا ذاهب إليه ومستصحبك إلى الموسم وهو بقعة جميلة جدا «ترى مرجا أخضر مترامي الأكناف»[1]، وتملؤه الخيام والمصابيح كالنجوم وينبعث من كل خيمة نغمات العود، والندماء جالسون يشربون ويتمتعون. وفي ساحة الأمير نار موقدة كالجبل والمهار توسَم، والأمير آخذ القدح بيد والوهق بالأخرى. يشرب الشراب، ويهب الخيل.

فأنشي قصيدة تناسب الوقت، وصف الموسم لأستصحبك إلى الأمير.

فانصرف فرخي تلك الليلة وأنشأ قصيدة رائعة، فلما أصبح توجه بالقصيدة إلى العميد أسعد. وهي:

منذ غطى المرج وجهه بوشاح أخضر

واكتست قمم الجبال قوس قزح من حرير

تضوعت الأرض بالمسك كنافة الغزال

وتلألأ ورق الصفصاف لا يحصي كريش الببغاء

وصباح الأمس هاجت الريح نفحات الربيع

حبذا ريح الشمال ويا طيب نسيم الموسم

وكأنما الريح بطيب المسك عطرت أكمامها

(١) جهاني در جهاني سبزه بيني.

obeikandl.com

وتزيت حافة البستان بأجمل الدمى

وتزين «النسترن» بقلادة من لؤلؤ

والأرغوان تحلى بقرط من لعل أحمر

وعلت كأس الكميت أغسان الورود

وتدلت من شجيرات الجميز أيد ببنان

واكتسى البستان ألوانا وضياء وبلونها تحلت الأغصان

بكت السحب لآلئ قد جرت في الأرض ماء[1]

وكأن الملك العادل قد حباها بالخلع

وبلغت الأرض من السعادة ذروة

وقف الدهر حيالها فرحا بل حائرا من أمرها

وترى المرج الأخضر مترامي الأكناف كأطباق السماء

وصفوفا من خيام كالقلاع المتراصة

مثل العاشق من خمر وحب في الخباء

---

(١) جون برند نيلكون برروي بوشد مرغزاربرنيان هفت رنك اندر سر آرد كوهار خاك راجون ناف آهو مشك زايد بي قياسبيدرا جون برطوطي برك رويد بي شمار دوش صبحدم بوي بهار آورد بادحبذا باد شمال وخرما بوي بهار

obeikandl.com

وحيثما الخضرة محبوب سعيد بحبيب

وعلا صوت الرباب العذب بالخضرة مشوب

فطغى على صوت السقاة يديرون كئوس راح

ثمل العشاق من قبلات وعناق

وترنحت الحسان من دلال وعتاب

وتغنى المطرب النشوان لا يحفل بنائم من خمار

باب كسرى قد أضاء أسفل الجبل بنار

هي شمس بل لواء كسرى من ديباج أصفر

ذهب يلمع عن بعدٍ وفيه من حياة

وفرة قد لا تدانيها الفتوة والشباب

هذه مكواة خيله عود مرجان أم ياقوت

تلمس النار فتشبه حبَّ رمان نضيد[1]

وصفوف من شباب لم يذوقوا النوم من فرط النشاط

---

(١) راست بنداري كه خلعتهاي رنكين يافتندباغهاي بر نكار از داغكاه شهريار
داغكاه شهريار اكنون جنان خرم بودكاندرو از خرمي خيره بماند روز كار
سبزه اندر سبزه بيني دون سبهر اندر سبهرخيمه اندر خيمه جون سيمين حصار اندر حصار
هركجا خيمه خفته عاشقي با دوست مستهركجا سبزه است شادان ياري از ديداريار

obeikandl.com

وصفوف من خيول في انتظار

هاكم كسرى السعيد على ظهر الجواد عبار البحار

قد أمسك القوس كاسفنديار

يتثنى ويتمايل مثل طرر الحسان

ولكنه كعهد الصداقة المجربة في استقامته

هو الأمير العادل أبو المظفر شاه مع حاشيته

سعيد، مجدود، موفق، قادر

كل ما يقع من صيد في أنشوطته

يكتب اسمه فوق جبينه وذراعه ووجهه

ولكنه إذ يسم الخيل يهب الهبات

يهدي الشعراء خيلا باللجام ويعطي الزوار خيلا في الحبال[1]

---

(١) ريد كان خواب ناديده مصاف اندر مصافمركبان داغ ناكرده قطار اندر قطار
خسرو فرخ سير برباءء دريا كذرباكمد اندر ميان دشت جون اسفنديار
همجو زلف نيكوان مروكيو تاب خورههمجو عهد دوستان سال خورده استوار
مير عادل بو المظفر شاه با بيوستكانشادمان وشادخوار وكامران وكامكار
هركرا اندر كمند شست بازي در فكندكشت نامش برسرين وشانه ورويش نكار
هرجه زين سو داغ كرداز سوي ديكر هديه دادشاعران را با لكام وزائرانرا با فسار

obeikandl.com

فلما سمع الرئيس أسعد هذه القصيدة تحير إذ لم يكن سمع مثلها قط. فترك أعماله كلها وأركب الفرخي وتوجه تلقاء الأمير. وبلغ الأميرَ حين الغروب وقال: «يا مولاي! أتيتك بشاعر لم يُر مثله منذ غيب الدقيقي التراب»[١].

وقصّ ما جرى. فأذن الأامير للفرخي. فلما دخل خدم[٢] فمد الأمير يده، وقرب مكانه وسأله ولاطفه ووعده إحسانه.

وبعد أن دارت الكئوس مرات قام الفرخي وأنشد هذه القصيدة بصوت حزين حسن:

غادرت سجستان مع قافلة الحِلة

فلما أتمها وكان الأمير عارفا بالشعر ويقرضه كذلك أكثر تعجبه من هذه القصيدة. فقال العميد أسعد: يا مولاي انتظر لترى خيرًا منها. فسكت الفرخي وصمت إلى أن بلغ سكر الأمير غايته. فقام وأنشد تلك القصيدة. قصيدة الموسم. فتحير الأمير والتفت إلى الفرخي في هذه الحيرة وقال:

حُشِد ألف مهر كلها ختلية غراء[١٥] محجلة الأربع. والأمر إليك أنت رجل سجزى وعيَّار فما استطعت أن تمسكه فأمسك فهو لك.

وكان الشراب قد غلب عليه وأثر فيه كل التأثير. فخرج ونزع عمامته من فوق رأسه وألقى بنفسه وسط القطعان. واستقبل قطيعا وأخرجها إلى جهة أخرى من الصحراء، وأجراها يمينا وشمالا وكل ناحية فلم يستطع أخذ واحد منها ثم ظهر في

(١) في الأصل: «منذ وضع الدقيقي وجهه في نقاب التراب». وهذا كناية عن الموت.
(٢) حيا الأمير على الطريقة المعتادة إذ ذاك.

openkandil.com

طرف المعسكر رباط خرب فدخلت المهار هذا الرباط وكان الفرخي قد بلغ منه النصب مبلغه. فوضع عمامته تحت رأسه في دهليز الرباط وغلبه النوم من فرط السكر والتعب.

وعدت المهار فإذا هي اثنان وأربعون وأخبر الأمير الخبر فضحك كثيرا وتعجب وقال: رجل مجدود سيعلو أمره، احرسوه والمهار وأيقظوني حين يستيقظ. فامتثلوا أمر الملك.

وقام الفرخي مطلع شمس الغد وكان الأمير قد قام. فصلى وجلس للناس، ولاطف الفرخي وسلمت إليه كل تلك المهار وأمر له بفرس مع عدة خاصة، وخيمتين وثلاثة بغال وخمس جوار وثياب للباس والفرش. وعلا أمر الفرخي في خدمته، وصار ذا أبهة تامة.

ثم ذهب إلى خدمة السلطان يمين الدولة محمود ولما رآه السلطان محمود في زينته نظر إليه بهذه العين، وبلغ من أمره أنه كان يركب خلفه عشرون غلاما بمناطق الفضة.

الحكاية الخامسة

ارتبع ملك الإسلام سنجر بن ملك شاه أطال الله بقاءه وأدام إلى المعالي ارتقاءه سنة عشر وخمسمائة[1] في برية تروق[١٦] في حدود طوس وأمضى هناك شهرين. ووصلت من هراة إلى هذه الحضرة على سبيل الانتجاع وكنت معدما، لا مال ولا

(١) ١١١٦-١١١٧م.

زاد، فأنشأت قصيدة، وتوجهت إلى أمير الشعراء المعزي أستعينه.

ورأى شعري واختبرني في أنواع منه، فأعجبته فأكرمني وقضى حقي.

وكنت يوما عنده أستزيد الزمان وأشكو، فعطف علي وقال: قد تعبتَ في هذا العلم، وبلغت غايته ولا بد له من أثر، وكذلك كانت حالي، وما ضاع شعر جيد قط، وسيكون لك في هذه الصناعة حظ؛ فشعرك سلس عذب، آخذ في الترقي، فاصبر وسترى لهذا العلم حسنات وإن جار عليك الزمان أول الأمر فسيواتيك من بعد.

كان أبي أمير الشعراء البرهاني رحمه الله قد انتقل من عالم الفناء إلى عالم البقاء في قزوين أول دولة ملكشاه، وأوصى بي السلطان بهذا البيت من تلك القطعة الرائعة:

لقد انتهيت وإن ابني لخلف صدق لي استودعه الله والملك[١]

فحوّل إلى ما كان لأبي من وظيفة وصلات[١٧]، وأصبحت شاعر ملكشاه، وقضيت في خدمة سلطان الزمان سنة لم أستطع رؤيته خلالها إلا من بعيد، ولم أحصل من الصلات والوظيفة على مَنٍّ أو درهم واحد. وزاد نفقاتي، وأثقل القرض كاهلي، وتعقد الأمر. وكان الوزير الكبير نظام الملك رحمه الله لا يميل إلى الشعر لأنه لم يكن يحسنه، وما عُني بأحد غير الأئمة والمتصوفة.

وفي يوم كان غداته غرة رمضان، ولم يكن لدي لنفقة هذا الشهر والعيد دانق، ذهبت وأنا ضيق الصدر إلى علاء الدولة الأمير علي فرامرز[١٨]، وهو أمير محب للشعر ونديم السلطان الخاص وصهره. كان ذا مهابة، جريئا، وهو يشغل منصبا رفيعا في تلك الدولة، وكان يرعاني. فقلت: أطال الله عمر الأمير ليس كل عمل قدر

(١) من رفتم وفرزند من آمد خلف صدقاورا بخدا وبخداوند سبردم

obeikandl.com

عليه الأب يقدر عليه الابن، وليس ما تيسر للوالد ميسرا للابن. لقد كان والدي رجلا جلْدا شهما، وكان موسعًا عليه في الرزق من هذه الصناعة -الشعر- وكان سيد العالم السلطان الشهيد ألب أرسلان يقدّره، فما كان منه لا يتأتى إليّ، فإن لي حياءً يمنع، وقد زاده طبع دقيق. وقد خدمت سنة، واستدنت ألف دينار وما مُنحت دانقًا. وأود الإذن لي بالعودة إلى نيسابور فأقضي ما علي من دين وأنفق مما تبقى، وأدعو للدولة القاهرة.

فقال الأمير علي: لقد صدقت، وقد قصرنا جميعا ولن نفعل بعد ذلك سيخرج السلطان في صلاة المغرب لرؤية الهلال فعليك أن تكون حاضرا هناك حتى نرى ما يجود به الحظ. ثم أمر لي في الحال بمائة دينار لنفقات شهر رمضان، فأحضرا لي على الفور كيسا به مائة دينار، فعدت مسرورا وأوصيت بشراء ما يلزم لهذا الشهر. وذهبت إلى باب مخيم السلطان وقت صلاة العصر، فكان من الصدف أن يصل علاء الدولة في هذا الوقت نفسه فحييته. فقال: حسنا فعلت وقد أتيت في الوقت المناسب، ثم نزل ودخل عند السلطان. وخرج السلطان من مخيمه ساعة الغروب وفي يده القوس، وكان علاء الدولة على يمينه. فهطعت وحييت، وقد أتم الأمير علي أفضاله عليّ. وشغلوا برؤية الهلال، وكان السلطان أل من رآه فكان سروره عظيما، فقال لي علاء الدولة: قل شيئا يا بن البرهاني في هذا الهلال الجديد فقلت هذين البيتين على الفور:

أيها القمر، إنك كحاجب الحبيب، أو أنت كقوس الملك

أو أنت كنعل الفرس من الذهب الخالص. أو كأنك القرط في أذن الفلك[1]

---

(١) اي ماه جو ابروان ياري كوئيياني جو كمان شهر ياري كوئى
نعلي زده از زرّ عياري كوئيدر كوش سبهر كو شواري كوئى

فلما أنشدت هذا الشعر استحسنه الأمير علي كثيرا، وقال السلطان: اذهب للإسطبل وخذ الحصان الذين تريد. وكنا في هذه الساعة قُرب الإسطبل. فأشار الأمير علي إلى الحصان فأحضروه وأعطوه لخدمي، وكان يقوّم بثلاثمائة دينار نيسابوري. وذهب السلطان إلى المصلى فصليت معه المغرب، ثم ذهبنا إلى المائدة. فقال الأمير علي ونحن جلوس عليها: يا بن البرهاني إنك لم تقل شيئا فيما أفاض عليك سلطان الدنيا من التشريف. قل على الفور «دو بيت». فنهضت وأديت التحية وقلت هذا الدو بيت كما اتفق:

حين رأى السلطان النار مشتعلة في خاطري

رفعني من الأرض فوق القمر

وحين سمع مني لحنا عذبا كالماء

وهبني حصانا من خيله يسابق الريح[1]

فلما أنشدت هذه الدو بيت استحسنه علاء الدولة كثيرا، ووهبني السلطان من أجل استحسانه إياه ألف دينار، ثم قال علاء الدولة: إن وظيفته وصلاته لم تصله وسألازم الوزير نظام الملك غدا حتى يأمر بصرف وظيفته من الخزانة ويجعل صلته على إصفهان. فقال السلطان: «لعلك فاعل هذا فليس للآخرين هذه الحسبة، ثم نادوه بلقبي». وكان لقب السلطان معز الدنيا والدين، فناداني الأمير علي بالأستاذ معزى، فقال السلطان: بل الأمير معزى. وقد كان من أمر هذا العظيم الرفيع النسب أن أمر لي في اليوم التالي وقت صلاة الظهر بألف دينار وبوظيفة ألف ومائتي دينار

(١) جون آتش خاطر مرا شاه بديداز خاك مرا بر زبرماه كشيد
جون آب يكي ترانه از من بشنيدجون باد يكي مركب خاصم بخشيد

obeikandl.com

كما أمر بإعطائي ألف مَنٍّ غلةً.

ولما مضى شهر رمضان دعاني إلى الحضرة وجعلني من ندماء السلطان وبدأ حظي في الترقي. وقد استمر هذا الأمير يُعنى بي وإن كل ما أنا فيه اليوم هو من رعايته. الله تبارك وتعالى ينير قبره بأنوار رحمته بمنه وفضله.

الحكاية السادسة

كان آل سلجوق جميعا يحبون الشعر. ولكن لم يكن منهم من أحبه أكثر من طغانشاه بن ألب أرسلان[١٩]. وقد كانت محاوراته ومجالسه كلها مع الشعراء، وكذلك كان ندماؤه جميعا من الشعراء، مثل الأمير أبي عبد الله القرشي وأبي بكر الأزرقي[٢٠] وأبي منصور بن يوسف وشجاعي النسوي وأحمد البديهي وحقيقي ونسيمي، وهؤلاء كانوا في خدمته. والغادون والرائحون كثيرون، كلهم مرزوق منه ومحظوظ.

وكان الأمير يلعب ذات يوم النرد مع البديهي، وكان اللعب على عشرة آلاف وقد أوشك على الانتهاء. كان عند الأمير حجران في بيت «الشيش» ولأحمد البديهي حجران في بيت «اليك» واللعب للأمير، فاحتاط كثيرا ثم رمى ليأتي «بالدش»، فجاء الزهر «هبيك» فغضب غضبا شديدا وخرج عن طبعه، وحق له هذا. وقد اشتد به الغضب فكان يمسك السيف كل لحظة، وارتعد الندماء كالورق على الشجر. فقد كان أميرا وحدَثا ومقمورا محرجًا.

فنهض أبو بكر الأزرقي واقترب من المطربين وأنشد هذا الدو بيت:

obeikandl.com

إذا طلب الملك «دوش» يأتي «الهبيك»

حتى لا تظن أن الزهر لا يعدل

فإن هذه «الضربة» التي ضربها هي مقصد الملك

جاءت إلى الخدمة ساجدة على الأرض[١]

حينما كنت في هراة سنة ٥٠٩[٢] حكى لي أبو منصور بن يوسف أن الأمير طغانشاه قد سُرّ بهذا الدو بيت وعاوده النشاط فقَبّل عيني الأزرقي. ثم طلب الذهب، خمسمائة دينار، وأخذ يملأ به فمه فلم يبق منه غير قطعة واحدة. وهكذا عاد إليه مرحه فوهب. وسبب هذا كله دو بيت واحد، رحم الله تبارك وتعالى الاثنين بمنه وكرمه.

الحكاية السابعة

رفع رجل ذو غرض في مشهور سنة اثنتين وسبعين وأربعمائة[٢١][٣] قصة إلى السلطان إبراهيم بأن ابنه الأمير سيف الدولة محمود قد اعتزم على الذهاب إلى

(١) يقصد أن «الدش» قد جاء كما أراد الأمير إلا أنه احتراما للأمير قد وضع وجهه على الأرض فظهر «الهبيك».

كرشاه دوشش خواست دويك زخم افنادتاظن نبري كه كعبتين داد نداد

آن زخم كه كرد رأي شاهنشه يادر خدمت شاه روي برخاك نهاد

(٢) ١١١٥م.

(٣) ١٠٧٩-١٠٨٠م.

obeikandl.com

العراق والالتحاق بخدمة ملكشاه؛ فأغار هذا صدر السلطان، فكان أن أمر بالقبض عليه فجأة وقيده، وأرسله إلى القلعة، كما قُيِّد ندماؤه وأُرسلوا إلى القلاع. وكان من هؤلاء مسعود بن سعد بن سلمان الذي أُرسل إلى قلعة ناي في وجيرستان[٢٢]. فأرسل هذا إلى السلطان «دو بيت» قال فيه:

أيها الملك، قد كان ينبغي أن يقع ملكشاه في أسرك حتى يحك قيدك قدميه

أما من أنجبه سعد بن سلمان فإنه لن يضر مُلكك ولو كان سمًّا[١].

وقد رفع على الخاص هذا الدو بيت إلى السلطان فلم يتأثر به. ويعرف أرباب العقل وأصحاب الإنصاف أي درجة بلغت حبسيات مسعود علوًا ولأي مرتبة سمت فصاحة، وأنه ليحدث أحيانا وأنا أقرأ أشعاره أن يقف شعر جسدي، كما يحدث أحيانا أن يفيض الدمع من عيني. وقد قرئت هذه الأشعار كلها على السلطان واستمع لها فلم يتأثر في أي موضع منها[٢٣]. ثم مات وترك هذا الرجل الحر في السجن. وقد دامت فترة سجنه اثنتي عشرة سنة بسبب تقربه إلى سيف الدولة، كما طال حبسه ثماني سنوات أيام السلطان مسعود بن إبراهيم بسبب تقربه إلى أبي نصر الفارسي[٢٤]. ولم يستمع إلى الكثير من القصائد الغراء والدرر النفيسة التي أبدعها طبعه الوقاد. وبعد ثماني سنوات أخرجه من السجن ثقة الملك طاهر بن علي مُشكان[٢٥].

وقد أمضى هذا الرجل الحر كل عمره، في دولتهم سجينا وبقيت هذه الوصمة لهذه الأسرة الكبيرة. وأنا حائر هنا فعلى أي وجه أحمل هذا الأمر أعلى ثبات الرأي أم

---

(١) در بندِ تو اي شاه ملكشه بايدتا بند توي باي تاجداري سايد
آن كس كه زبشت سعد سلمان آيدكر زهر شود ملك ترا نكزايد

obeikandl.com

على غفلة الطبع أم على قسوة القلب أم على الحقد. ومهما يكن فإنه ليس حسنا. ولم أر عاقلا يحمد لتلك الدولة هذا الحزم والاحتياط. وقد سمعت من سلطان العالم غياث الدنيا والدين محمد بن ملكشاه، عند باب همدان في حربه مع الأمير شهاب الدين قُتلمش ألب غازي الذي كان زوج أخته[٢٦]، طيب الله تربتها ورفع في الجنان رتبتها، أن حبس الخصم علامة على الحقد لأن الأمر لا يعدو واحدا من اثنين إما أن يكون الخصم مصلحا أو مفسدا، فإذا كان مصلحا فحبسه ظلم وإذا كان مفسدا فتركه على قيد الحياة ظلم أيضًا. وفي الجملة فقد انقضى ما لقي مسعود وستبقى هذه الوصمة إلى يوم القيامة.

الحكاية الثامنة

كان مُلك الخاقانيين[٢٧] أيام السلطان خضر بن إبراهيم[٢٨] عظيم الشأن وبلغ حسن سياستهم ومهابتهم الأوج -وكان هذا السلطان عاقلا عادلا، وكان زينة الملك فيما وراء النهر، وقد سلّمت له تركستان- وكان مستريحا تماما من ناحية خراسان، فقد توطدت بينه وبينها صلات النسب والصداقة واستقر بينهما العهد والميثاق. ومن جملة عظمة ملكه أنه كان حين يركب، يتقدم حصانه سبعمائة مجن من الذهب والفضة عدا الأسلحة الأخرى. وكان صديقا عظيما للشعراء، فكان في خدمته الأستاذ الرشيدي، والأمير عمعق ونجيبي الفرغاني ونجار الساغرجي، وعلي البانيذي وابن درغوش، وابن الأسفراييني وعلي السبهري وكانوا ينالون منه صلات ثمينة ويأخذون منه تشريفات غالية. وكان الأمير عمعق أمير الشعراء وكان له من هذه الدولة حظ كامل وثراء عظيم، من الغلمان الترك والجواري الحسان والخيل المُجلية والأدوات الذهبية والأكسية الفاخرة وغيرها كثير من الناطق

obeikandl.com

والصامت. وكان عظيم الاحترام في مجلس الملك، فكان من الضروري أن يُلزم بخدمته الشعراء الآخرون، فطمع في أن يخدمه الأستاذ الرشيدي، كما يفعل الآخرون، ولكنه لم يفعل. فقد كان الرشيدي على صغره عالما في تلك الصناعة. وكانت ممدوحته الست زينب بينما كان جميع حرم خضرخان تحت إمرته. وكان مقربا جدا من السلطان، الذي كان يثني عليه ويقر بفضله، حتى ارتفع شأن الرشيدي وصار سيد الشعراء وأصبح للسلطان اعتقاد فيه وأجزل له الصلات. فذات يوم في غيبة الرشيدي سأل السلطان عمعق قائلا: «كيف ترى شعر عبد السيد الرشيدي؟». فقال عمعق: «شعر في غاية الجودة منقى ومنقح، ولكن يلزمه بعض الملح». ولم يمض على ذلك كثير من الوقت حتى دخل الرشيدي وأدى الخدمة وطلب الجلوس. فاستقدمه السلطان وقال له قاصدًا الإيقاع بينهما كما هي عادة السلاطين: «سألت أمير الشعراء كيف شعر الرشيدي فقال: إنه حسن ولكن بلا ملح، فعليك أن تقول بيتين في هذا المعنى» فأدى الرشيدي الخدمة ثم جاء إلى مكانه وجلس وقال هذه القطعة على البديهة:

لقد عبت شعري بأن لا ملح فيه، وقد يكون هذا جائزا

إن شعري كالسكر والشهد، فالملح لا يصلح لهما

أما شعرك فلفت وباقلاء، فالملح يلزمك أيها الخبيث[1].

فلما عرض هذا الشعر سر الملك سرورا عظيما. والعادة في ما وراء النهر، في

(١) شعر هاي مرا به بي نمكيعيب كرد روا بود شايد
شعر من همجو شكر وشهدستوندرين دو نمك نكو ننايد
شلغم وباقليست كفتهء تونمك أي قلتبان ترا بايد

مجالس الملك، والمجالس الأخرى أن يضعوا الذهب والفضة في الأطباق، ويسمونها سيم طاقا أو جفت. وقد وُضع في مجلس خضرخان أربعة أطباق بها الذهب الأحمر من أجل العطاء، في كل منهما مائتان وخمسون دينارا، وكان يهب منها بقبضة يده. وقد أقر بها في هذه الأطباق الأربعة للرشيدي. وأظهر له غاية الاحترام. واشتهر. لأنه كما أن الممدوح يعرف بشعر الشاعر المجيد، فكذلك يعرف الشاعر بصلة الملك القيمة، فإن هذين المعنيين متلازمان.

الحكاية التاسعة

الأستاذ أبو القاسم الفردوسي من دهاقين طوس، من قرية تسمى باز[١٩] من ناحية طبران[٣٠]، وهي قرية كبيرة تخرج ألف رجل. وكان للفردوسي شوكة عظيمة في قريته، وكان في غنى عن أمثاله بما تغله ضياعه. وكانت له بنت واحدة فكان ينظم الشاهنامة وكل أمله أن يعد جهاز هذه البنت من صلة ذلك الكتاب، فاشتغل به خمسا وعشرين سنة حتى أتمه، والحق أنه لم يترك شيئا وأنه بلغ بالكلام إلى سماء العليين وأوصله في العذوبة إلى ماء معين. وأي طبع تتهيأ له هذه القدرة ليصل بالكلام إلى الدرجة التي أوصله الفردوسي إليها في كتابه الذي كتبه زال إلى سام بن نريمان في مازندران بشأن طلب الزواج من روذبة ابنة ملك كابل:

ثم أمر بكتابة خطاب إلى سام ملؤه المديح والدعاء والسلام.

فاستفتح بذكر الله الذي أمر بالعدل وعدَل.

ومنه إلى سام بن نيرم، رب السيف والدرع والخوذة، دعاء.

obeikandl.com

إنه صارع الخيل وقت المعركة وآكل الرخ في الموقعة.

إنه مثير الريح وقت الحرب وناثر الدم من السحاب الأسود.

إنه فضل في فضل بالشجاعة، وقد رفعت رقبته رأسه عزةً[١].

وأنا لم أر في كلام العجم مثل هذه الفصاحة وكذلك في كثير من كلام العرب ولما أتم الفردوسي الشاهنامة كان نساخه أبا علي الديلمي وكان راويه أبا دلف ووشكرحي (حسين) بن قتيبة الذي كان عامل طوس وله على الفردوسي أيادٍ، وهو يذكر أسماء هؤلاء الثلاثة:

ولعلي الديلمي وأبي دلف، بين أكابر المدينة نصيب موفور[٢].

---

(١) يكي نامه فرمود نزديك سام
سرا سر درود نونويد وخرام
نخست از جان آفرين ياد كرد
كه همه داد فرمود وهم داد كرد
وزو باد بر سام نيرم درود
خداوند شمشير وكوبال وخود
جماننده‌ء جرمه هنكام كرد
جراننده‌ء كركس اندر نبرد
فزاينده‌ء باد آور دكاه
فشاننده‌ء خون ز ابر سياه
بمردي هنر در هنر ساخته
سرش از هنر كردن افراخته

(٢) في هذه الأبيات تقديم وتأخير، ونحن نذكر القطعة كلها حتى يبين المعنى:
حينما مضى علي خمس وستون سنة زدت همي ونصبي، وشقيت بتاريخ الملوك ونحس كوكبي. والكبراء والأحرار أولو العلم كتبوه جميعا مجانا وهم ينظرون إليّ من بعيد كأني كنت أجيرهم. ولم يكن حظي

obeikandl.com

ولم يكن حظي منهم إلا أحسنت لقد تحطمت قوتي تحت قولهم أحسنت.

وحسين بن قتيبة ذلك الحر الذي لم يبغ مني الكلم بغير جزاء

لم أكن اعبأ بالخراج أصله وفرعه، وكنت أتقلب في رغد ورفاهية[١].

وكان حي (حسين) بن قتيبة عامل طوس. وقد رأى من واجبه أن يضع عن الفردوسي الخراج، لا جرم أن يبقى اسمه حتى يوم القيامة، ويقرأه الملوك. ثم كتب علي الديلمي الشاهنامة في سبعة مجلدات. وأخذ الفردوسي أبا دلف وتوجه تلقاء الحضرة في غزنة، وتوسل بالرئيس الكبير أحمد بن الحسن الكاتب فقبلها. وكان السلطان محمود يعرف له أياديه، ولكن الرئيس الكبير كان له منافسون يدأبون على الإيقاع به والغض من قدره. فسأل محمود هذه الجماعة ماذا نعطي الفردوسي؟ قالوا:

منهم إلا أحسنت. لقد تحطمت قوتي تحت قوله أحسنت. زمّوا رءوس البدر العتيقة، وانقبض صدري المنور. ولكن لعلي الديلمي بين أكابر المدينة، نصيب موفور، ذلك الرجل ذو البصيرة يسر عملي وسني نجاحي. وأبو نصر الوراق كذلك نال بهذا الكتاب من الكبراء شيئا كثيرا. وحسين بن قتيبة ذلك الحر الذي لم يبغ مني الكلم بغير جزاء، كان منه الطعام واللباس والفضة والذهب وبه تحركت يدي وقدمي، مستريحا من الخراج أصله وفرعه متقلبا في رغد ورفاهية. الشاهنامة (٢/ ٢٧٥) هامش (عزام بك).

(١) ازين نامه ز نامداران شهر
علي ديلم وبو دلف راست بهر
نيامد جز احسنتشان بهره ام
بكفت انرد احسنتشان زهره ام
حيّ قتيبه است از آزادكان
كه از من نخواهد سخن رايكان
نيم آكه از اصل وفرع خراج
همي غلطم اندر ميان دواج

خمسين ألف درهم، بل هذا كثير لأنه رجل رافضي معتزلي. وهذا البيت دليل على اعتزاله فهو يقول:

إنك لن ترى الخالق بعينيك، فلا تجهدهما[١]

وهذه الأبيات دليل على رفضه فإنه يقول:

«إن الحكيم يرى هذه الدنيا بحرا ثارت بموجه ريح عاصف، فيه سبعون سفينة قد نشرت شرعها، بينهن سفينة كالعروس، مجلوة في زينتها كعين الديك. وفيها محمد وعلي وأهل بيت النبي والوصي. فإن كنت ترجو الدار الآخرة فتبوأ مكانك عند النبي والوصي. فإن أصابك من هذا شرف فإثمه عليّ. ذلك مذهبي وطريقتي. عليه ولدت وعليه أموت. وما أنا إلا تراب قدم حيدر»[٢].

---

(١) به بينند كان آفريننده را
نبيني مرنجان دو بيننده را

(٢) خردمند كيتي جو دريا نهاد
برانكيخته موج ازو تند باد
جو هفتا كشتي درو ساخته
همه باد بانها بر آفراخته
ميانه يكي خوب كشتي عروس
بر آراسته همجو جشم خروس
بيمبر بدو اندرون با على
همه أهل بيت نبي ووصى
اكر خلد خواهي بديكر سراى
بنزد نبي ووصي كير جاى
كرت زين بد آيد كناه منست
جنين دان واين راه راه منست

obeikandl.com

وكان السلطان محمود رجلا متعصبا فعملت فيه هذه السعاية وأصغى إليها، فأرسل إلى الفردوسي عشرين ألف درهم. فاغتم جدا وذهب إلى الحمام ثم خرج وشرب فقاعا، وقسَّم هذه الفضة بين الحمامي والفقاعي. وكان يعلم سطوة محمود ففارق غزنة بليل، ونزل بهراة في دكان إسماعيل الورّاق والد الأزرقي -الشاعر- وتوارى في داره ستة أشهر حتى بلغ طلاب السلطان طوسا وعادوا.

فلما أمن الفردوسي توجه من هراة إلى طوس، وحمل الشاهنامة وسار إلى طبرستان إلى الأصبهبذشهريار(٣١) الذي كان ملك طبرستان، من آل باوند وهي أسرة عظيمة يتصل نسبها بيزدجرد بن شهريار فكتب في الديباجة مائة بيت في هجاء محمود. وقرأها على شهريار وقال: «سأحوّل هذا الكتاب من اسم محمود إلى اسمك. فإن هذا الكتاب كله أخبار أجدادك ومآثرهم». فتلطف شهريار وأكرمه وقال: «يا أستاذ إن محمودا قد حُمل على هذا، ولم يُعرض عليه كتابك كما ينبغي وسُعي بك. ثم أنت رجل شيعي. وكل من تولى آل النبي لم تستقم له أمور الدنيا إذ لم تستقم له أنفسهم. ومحمود ملكي. فدع الشاهنامة باسمه، وأعطني الهجاء لأغسله وأعطيك شيئا يسيرا. سيدعوك محمود ويسترضيك. ولا يضيع جهد كتاب مثل هذا». وفي اليوم الثاني أرسل إليه مائة ألف درهم وقال: اشتريت كل بيت بألف درهم، فأعطني مائة البيت هذه، وارض عن محمود، فأرسل الفردوسي الأبيات فأمر شهريار بغسلها، وغسل الفردوسي مسودتها أيضًا. وضاع الهجاء وبقيت منه هذه الأبيات الستة.

«لقد قالوا طاعنين: إن هذا المنطيق شابَ على حب النبي وعلي

برين زادم وهم برين بكذرم
يقين دان كه خاك بي حيدرم

ولئن حكيتُ لهم حبي لأحمين مائة مثل محمود

إن ابن الأمة لا يرجى خيره ولو كان أبوه ملكا

حتّام أطيل الكلام في هذا، وهو كالبحر لا أعرف له قرارا؟

لم يكن للملك قدرة على الخير، وإلا لرفعني على العرش

ولم يكن عظيم الأصل فلم يحسن أن يستمع أسماء العظماء»[١].

والحق أن شهريار قدم إلى محمود يدا عظيمة وقد عرف له محمود حقه.

وقد سمعت سنة ٥١٤[٢] في نيسابور من الأمير المعزي أنه سمع من الأمير عبد الرازق بطوس أن محمودا كان في الهند مرة، وبينا هو عائد منها إلى غزنة عرض له

---

(١) مرا غمز كردند كان بر سخن
بمهر نبي وعلي شد كهن
اكر مهر شان من حكايت كنم
جو محمود را صد حمايت كنم
برستار زاده نيايد بكار
وكر جند باشد بدر شهريار
أزين در سخن جند رانم همى
جو دريا كرانه ندانم همى
به نيكي نبد شاه را دستكاه
وكرنه مرا بر نشاندي بكاه
جو اندر نبارش بزركي نبود
ندانت نام بزركان شنود

(٢) ١١٢٠-١١٢١.

obeikandl.com

ثائر في قلعة حصينة. وكان منزل محمود في اليوم الثاني عند باب هذه القلعة. فأرسل إليه رسولا أن ائت غدا، وقدم الطاعة، واخدم حضرتنا، والبس التشريف، وارجع. فلما كان الغد ركب محمود. وبينما الرئيس الكبير[١] يسير عن يمينه إذ عاد الرسول وأقبل شطر السلطان.

فقال السلطان للرئيس الكبير: ماذا يكون الجواب؟ فأنشد الرئيس بيت الفردوسي هذا:

إن لم يأت الجواب كما أريد فأنا والجزر والميدان وأفرا سياب[٢]

قال محمود: لمن هذا البيت الذي تنبعث الشجاعة منه؟ قال: للمسكين أبي القاسم الفردوسي الذي احتمل العناء خمسا وعشرين سنة وأتم هذا الكتاب وما جنى أية ثمرة. قال محمود: أحسنتَ بما ذكرتني، فقد آسفني أن يُحرم عطائي هذا الرجل الحر. ذكّرني في غزنة لأرسل إليه شيئا. فلما جاء الرئيس غزنة ذكّر محمودا. فقال السلطان: مر لأبي القاسم الفردوسي بستين ألف دينار، يعطاها نيلجا، وتحمل على الإبل السلطانية إلى طوس، ويعتذر إليه. ومضت سنون والرئيس في شغل بهذا. ثم أنجز الأمر وحمل الإبل. ووصل النيلج سالما إلى طبران. وبينما الإبل تدخل من باب رودبار كانت جنازة الفردوسي تخرج من باب رزان. وكان في ذلك الوقت في طبرستان واعظ متعصب فقال: أنا لا أجيز حمل جنازة الفردوسي إلى قرافة المسلمين فإنه كان رافضيا، وأطال الناس التحدث إلى هذا العالم ولكن حديثهم لم يجد معه شيئا. وكان للفردوسي حديقة عند هذه البوابة فدفنوه بها، وهو فيها اليوم. وقد

(١) لقب الشيخ الأجل شمس الكفاة أحمد بن الحسن الميمندي وزير السلطان محمود.

(٢) اكر جز بكام من آيد جواب
من وكرز وميدان وافراسياب

obeikandl.com

زرت تل المقبرة سنة ٥١٠[١].

ويقولون: إن الفردوسي خَلّف بنتا عظيمة النفس أرادوا أن يسلموا إليها هبة السلطان فأبت وقالت: لا حاجة بي إليها. فكتب صاحب البريد إلى السلطان وعُرض الأمر عليه فأمر بأن يخرج ذلك العالم من طبران لما بدا منه من فضول، وأن يطرد من بيته وأن يعطى المال إلى الشيخ أبي بكر بن إسحاق الكرامي[٣٢] ليعمر به رباط جاهه في حدود طوس، على طريق مرو ونيسابور. فلما بلغ الأمر طوسا امتثلوه. وبناء رباط جاهه من هذا المال.

الحكاية العاشرة

لما كنت في خدمة السلطان ملك الجبال[٣٣] نور الله مضجعه ورفع في الجنان موضعه، وكان عظيم الثقة بي وكان يبدي همة عالية في رعايتي، كان من بين من وفد على الحضرة يوم عيد الفطر من عظماء وأبناء مدينة بلخ عمرها الله، الأمير العميد صفي الدين أبو بكر محمد بن الحسين الروانشاهى، وهو شاب فاضل مفضل وكاتب مجيد ومستوف صالح وله من الأدب وثمراته نصيب، وهو محبب إلى القلوب، تمدحه الألسن. ولم أكن في هذه الأثناء ماثلا بالخدمة.

وقد اتفق أن قال الملك في هذا المجلس: نادوا النظامي. فقال الأمير العميد صفي الدين: «هل النظامي هنا؟» فقيل له: «نعم». وقد حسب أنه النظامي المنيري، فقال له: نعم إنه شاعر مجيد ورجل مشهور. فلما جاء الفراش وناداني تنعلت ودخلت ثم أديت الخدمة وجلست في مكاني، فلما دارت الكئوس مرات قال الأمير

(١) ١١١٦-١١١٧.

obeikandi.com

العميد: إن نظامي لم يجئ. فقال ملك الجبال: جاء، ها هو جالس هناك. فقال الأمير العميد: لم أقصد هذا النظامي إنه رجل آخر وما هذا فأنا لا أعرفه. وحينئذ رأيت الملك وقد تغير والتفت إلي في الحال وقال: هناك نظامي غيرك؟ فقلت: نعم يا مولاي، يوجد نظاميان أحدهما السمرقندي ويسمونه نظامي المنيري والآخر النيسابوري ويسمونه نظامي الأثيري، وأما أنا فيسمونني نظامي العروضي. فقال: أأنت الأفضل أم هما؟

وقد أدرك الأمير العميد أنه أساء التعبير ورأى الملك متغيرا فقال: أيها الملك إن هذين النظاميين عربيدان وهما يعكران صفو المجالس بعربدتهما فيفسدانها. فقال الملك متلطفا: «انتظر حتى ترى هذا وقد شرب خمسة كئوس من الخمر المثلثة وأفسد المجلس. ولكن أي هؤلاء الثلاثة أشعر؟». فقال الأمير العميد: لقد رأيت ذينك الاثنين وأعرفهما حق المعرفة ولكن لم أر هذا ولا سمعت شعره فلو قال في هذا المعنى الذي ذكرته بيتين فأرى طبعه وأسمع شعره فإني أحكم أي هؤلاء الثلاثة أفضل؟

فالتفت الملك إلي وقال: هيا يا نظامي ولا تخجلنا، وأنشد ما طلب الأمير العميد. وكنت أثناء خدمتي للملك فياض الطبع وهاج الخاطر، وكنت من إكرامه وإنعامه علي أنشد الشعر بالبديهة، فأمسكت القلم وقلت هذه الأبيات الخمسة ولما تدر الكئوس مرتين:

مولاي نحن في الدنيا ثلاثة نظاميين تدوي الدنيا باسمنا

أنا في ورساد[٣٤] أمام عرش ملكي والآخران في مرو أمام السلطان

والحقيقة أن كلا منا مفخرة خراسان اليوم

ومع أنهما يقولان شعرا رقيقا كالروح، ومع أنهما يعرفان فن القول كالحكمة فأنا الشراب إذا تمكنت منهما نزلا عن صناعتهما[١].

فلما أنشدت هذه الأبيات تقدم الأمير العميد صفي الدين بالخدمة ثم قال: أيها الملك دع النظاميين الآخرين فإني لم أعهد في أحد من شعراء ما وراء النهر وخراسان والعراق هذا الطبع الذي يمكنه من ارتجال مثل هذه الأبيات الخمسة وخاصة بهذه المتانة والجزالة والعذوبة، فإنها مقرونة بعذب الألفاظ ومشحونة بالمعاني الجديدة، فلتسعد يا نظامي فليس لك على وجه البسيطة نظير. إن له يا مولاي طبعا لطيفا وخاطرا قويا وفضلا تاما. وإن إقبال الملك وهمته، رفعهما الله، قد زاداه فصيراه نادرة زمانه، وسوف يتقدم فإنه شاب والمستقبل له.

فتهلل وجه الملك العظيم وظهرت بشاشة طبعه وأثنى علي فقال: لقد وهبتك (خمس)[٢] منجم رصاص ورساد من هذا العيد حتى عيد الأضحى فأرسل عاملا.

---

(١) در جهان سه نظاميئيم أي شاه
كه جهاني ز ما بافغانند
من بورساد بش تخت شهم
وآن دو در مرو بش سلطا نند
بحقيقت كه در سخن امروز
هر يكي مفخر خراسانند
كرجه همجون روان سخن كويند
ورجه همجون خرد سخن دانند
من شرايم كه شان جو دريابم
هر دو از كار خود فرو مانند

(٢) زدنا هذه الكلمة «خمس» هنا حتى يتسق النص. ولعل النساخ نسوها. أما القزويني فقد ذهب في حواشيه ص١٩٢ إلى أن المقصود من الجملة «درمدت هفتا رزو دوازده هزار من سر از آن خمس بدبن

ففعلت وبعثت إسحاق اليهودي وكان ذلك في تمام الصيف وهو موسم العمل وفيه يكثر إذابة المعدن حتى إنه جمع في سبعين يوما اثني عشر ألف منّ من ذلك الخمس[١] الذي مُنحت. وارتفع تقدير الملك لي ألف مرة. نوّر الله تبارك وتعالى قبره العزيز بشمع رضاه وفرّح روحه الشريف بجمع الغَنَاء بمنه وكرمه.

دعا كوي رسيد» غير مفهوم، وقال: إما أن تقرأ «در إزاء خمس» باعتبار النظامي من آل النبي صلى الله عليه وسلم وأنه مستحق للخمس. وإما أن تقرأ «بدون خمس» أي بعد إخراج الخمس نتج اثنا عشر ألف من. وربما كان المقصود أن السلطان وهبه خمس إنتاج المنجم، ولذا زدنا كلمة الخمس ووضعناها بين قوسين.

(١) زدنا هذه الكلمة «خمس» هنا حتى يتسق النص. ولعل النساخ نسوها. أما القزويني فقد ذهب في حواشيه ص١٩٢ إلي أن المقصود من الجملة «درمدت هفتا رزو دوازده هزار من سر از آن خمس بدبن دعا كوي رسيد» غير مفهوم، وقال إما أن تقرأ «در إزاء خمس» باعتبار النظامي من آل النبي صلي الله عليه وسلم وأنه مستحق للخمس. وإما أن تقرأ «بدون خمس» أي بعد إخراج الخمس نتج اثنا عشر ألف من. وربما كان المقصود أن السلطان وهبه خمس إنتاج المنجم، ولذا زدنا كلمة الخمس ووضعناها بين قوسين.

obeikandl.com